

خصائص الحضارة الإسلامية كحضارة عالمية

(مجلة السودان للبحوث والدراسات الاستراتيجية، الخرطوم: العدد ١٤، أغسطس ٢٠١٨)

عبدھ مختار موسى

بروفيسر في العلوم السياسية

بجامعة امدرمان الإسلامية

Drmukhtar60@gmail.com

مقدمة:

لعل من بين ما لاحظته الكثير من الباحثين حول الاستشراق (نقل الشرق - بعلمه وثقافته وفلسفته وحضارته - إلى الغرب الأوروبي) ليس كله سيئاً بل هناك بعض الإيجابيات. من الجوانب الإيجابية للدراسات الاستشراقية أن الاستشراق كان - خاصة في المرحلة الثانية - أكثر موضوعية، باحثاً عن الحقيقة.

من هذا الجانب الإيجابي برزت مدرسة شيكاغو للتاريخ الشامل في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين. فبالحياد العلمي نظرت هذه المدرسة لتاريخ الحضارات العالمية فوجدت أن الحضارة الإسلامية كان لها اسهاماً كبيراً في الحضارة العالمية تم تغييره في كتابات المؤرخين والباحثين الغربيين. فقد دعت هذه المدرسة إلى قراءة تاريخ الإسلام وحضارته من منظور عالمي شامل لأن تاريخ النهوض الأوروبي الاقتصادي والتقني والإنساني لا يستقيم بدون قراءة قرون الإسلام السبع (ما بين القرن العاشر والسابع عشر) ودورها في تاريخ العالم وحضارته الحديثة.^١

من رواد هذه المدرسة مارشال هودجسون Marshall Hodgson (المتوفي عام ١٩٦٨) وذلك من خلال كتابه المسمى "مغامرة الإسلام: الوعي والتاريخ في حضارة عالمية" الذي صدر في ثلاث مجلدات بعد وفاته في عام ١٩٧٤:

(The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization)

وسلسلة مقالاته الداعية إلى إعادة قراءة تاريخ العالم:

Rethinking World History, Essays on Europe, Islam and World History...

والآخر هو زميله وليم ماكنيل (William McNeill) من خلال كتابه "صعود الغرب..."

The Rise of the West فقد اتفق رواد هذه المدرسة على ترابط حضارات العالم وتأثيراتها المتبادلة منذ الحضارات والإمبراطوريات الكبرى في الألف الثاني قبل الميلاد. وقد اعترفوا بأن التاريخ الإسلامي تاريخاً عالمياً والحضارة الإسلامية حضارة عالمية.

لاحظ المؤرخون والمهتمون بدراسة الحضارات العالمية أن الإسلام نشأ كدين عربي على نطاق محدود نسبياً - في البداية - ثم تحول إلى "حضارة عالمية، بل أول حضارة عالمية حقيقية عرفها التاريخ."^٢ بالنسبة للعرب مثَّلت الفتوحات العربية بداية حقبة تاريخية دامت ألف سنة - منذ القرن السابع وحتى القرن السابع عشر. هذه الحقبة شهدت فيها الحضارة الإسلامية أبرز حضارات العالم القديم: الإغريقية الرومانية، والسامية الإيرانية، والسنسكريتية، والمالية الجاوية، والصينية. حدث اتصال كل هذه الحضارات مع الحضارة الإسلامية في إطار حضارة رئيسية متسعة واحدة. استخرج المسلمون عناصر هذه الحضارات المختلفة - وبالأخص منها الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية - وأضافوها إلى تراثهم العربي لإنشاء حضارة مميزة مثلت إحدى أكثر الحضارات التي شهدها العالم حيوية وقدرة على البقاء.

وهنا نشطت عوامل عديدة هي: ظهور مؤسسات الدولة والمراكز المدنية (الحضرية) التي مثَّلت بؤراً لنمو الحضارة الإسلامية؛ واهتداء الشعوب الخاضعة للحكم الإسلامي إلى الإسلام؛ وقدرة الحضارة الإسلامية على استيعاب وتكييف وتحويل ثقافة الحضارات المجاورة؛ وإنشاء المؤسسات الاجتماعية الدينية التي مكنت الحضارة الإسلامية من البقاء، والإزدهار، بعد أن آلت السلطة السياسية المركزية إلى زوال.^٣

أولاً: ملامح التطور السياسي للحضارة الإسلامية:

في السنوات الأولى من الفتح الإسلامي كان المجتمع يُحكم من المدينة، ومن قبل طبقة التجار العرب الأرسقراطيين التي خلفت النبي (ص) على نحو متتال. ولكن قبل نهاية النصف الثاني من القرن السابع الميلادي انتقلت السلطة السياسية إلى خارج الجزيرة العربية لتصبح في أيدي عائلتين حاكمتين: "الأمويون" الذين حكموا (من دمشق) الإمبراطورية العربية بين عامي ٦٦١ - ٧٥٠م و"العباسيون" الذين أطاحوا بالأمويين وحكموا من عاصمتهم العظيمة بغداد حتى العام ١٢٥٨م.

وعلى الرغم من أن مكة والمدينة ظلتا تمثلان المحور الروحي للحضارة الإسلامية، إلا أن الحكام العرب في سوريا والعراق ورثوا من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية التقاليد والأنظمة التي سهلت عليهم الانتقال إلى الحكم الإمبراطوري. وقد تضمنت هذه التقاليد والأنظمة الموروثة أفكار الملكية المطلقة والشعائر الرفيعة المستوى. والإدارة البيروقراطية ذات الكفاءة ونظام (سك العملة)، والجيش الدائم (العامل) ونظام جباية خراج الأراضي الذي اعتمد عليه اقتصاد كل إمبراطوريات

الهلال الخصب العظيمة.. وتبنى الحكام المسلمون اللباس الفاخر ومراسم المحاكم المهيبة وهيبة الحاكم المطلق التي كانت سائدة لدى أسلافهم الساسانيين. وقد حافظ الخلفاء أيضاً على أسلوب الساسانيين في رعاية الدين الرسمي للدولة - عينوا القضاة المسلمين وشيدوا المساجد. وقدم الخلفاء الدعم لمجموعة متنوعة وكاملة من الفنون والحرف التي أصبحت ملازمة للحضارة الإسلامية. وشجعوا الفنون وصناعة الكتب وحياسة السجاد وصنع الفخار والخط العربي والحفر على العاج والخشب، وصنع الأواني الزجاجية والتطريز على القماش وغيرها.^٤

حدث هذا النمو بأكمله في أجواء عملية "التحول المدني" الاستثنائية التي أعقبت الفتوحات؛ هذه الفتوحات مثلت إحدى السمات المميزة للحضارة الإسلامية. ونمت المدن الكبرى كالقاهرة وقرطبة والبصرة كحاميات للجنود ونتج هذا التطور - جزئياً - عن ممارسة سياسة توطين وتمديد المجتمعات البدوية. وفي عام ٧٥٦م بلغ سكان بغداد نصف مليون نسمة. وحفظت الإدارة الإسلامية لهذه المدن الأقليات حقوقها وحمايتها واعترفت بهذه المجتمعات وتم استيعاب اليهود في بعض المدن (مثل طليطلة في الأندلس) دون تعريضهم للممارسات (المعادية للسامية) التي تعرضوا لها في المدن الأوروبية المسيحية في أواخر القرون الوسطى.^٥

ثانياً: التحول إلى الإسلام:

البعد الآخر لعملية دخول الحضارة الإسلامية في التاريخ العالمي تمثل في التحول الجماعي للمجتمعات الشرق أوسطية المقيمة (غير المهاجرة أو المترحلة) إلى الإسلام، وبحلول القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين أصبح الدين الإسلامي هو السائد والمهيمن في منطقة الشرق الأوسط. وقد رصد الباحثون (مثل ريتشارد بوليت Richard Bullet) ديناميكيات هذا التحول وأظهرت الدراسات التي (أجريت حديثاً) المدى المذهل للتواصلية الثقافية والحضارية في عملية التحول (الديني).^٦ واعتنق الكثيرون الإسلام لوجود قواسم مشتركة (في المواقف والأفكار والمؤسسات) بين حضاراتهم والحضارة المستوردة من الجزيرة العربية. فعلى سبيل المثال يشترك المسلمون في شعيرة تقديم الأضاحي مع الوثنيين والزرادشتيين؛ ويشتركون مع اليهود في شعيرة الذبح، وهم يعتمدون النظم المؤسساتي في إدارة الأعمال الخيرية وأموال الصدقات، شأنهم في ذلك شأن المسيحيين واليهود، ويقطون رؤوسهم أثناء العبادة كاليهود، وتشابه شعائرهم العبادية مع شعائر النسطوريين والمسيحيين.^٧

وفيما وجد المسلمون أنفسهم يحكمون مجتمعات دينية متنوعة ومتعددة كالمسيحيين الروم والأرذوكس والناسطرة والأقباط، والزرادشتيين، والمانويين واليهود إلى جانب مجموعة من التقاليد

اللغوية والأدبية بما فيها الإغريقية والقبطية والسريانية والأرمنية والإيرانية الوسيطة وغيرها من الحضارات والديانات الأخرى المعاصرة للدين الإسلامي كان أمام النخبة العربية خياران: إما صياغة هوية إسلامية أكثر استقلالية على غرار المجتمعات الأخرى التي يحكمونها، أو أن تحاول الجمع بين كل هذه المجتمعات والتقاليد المختلفة في تركيبة حضارية واحدة.⁸

قبل نهاية القرن الثامن الميلادي تحولت النخبة العربية إلى الخيار الثاني. وشجعوا الأغلبية الساحقة غير المسلمة إلى التحول إلى الدين الإسلامي. ومنذ ذلك الحين بات الدين الإسلامي واللغة العربية يتوجهان إلى وجوب إقامة ترابط حضاري، عن طريق الجمع بين المجتمعات الدينية واللغوية في إطار هوية دينية واحدة، متسامين في البداية عن الهويات الأخرى ليحلا في النهاية محلها.⁹

ولأن المسلمين فضلوا الخيار الثاني تحول الإسلام إلى حضارة عالمية ولم يبق مجرد دين عرقي محدود النظرة. ويدرك المسلمون دورهم التوحيدي الذي أمرهم به القرآن بالعودة إلى الوحدانية الصافية التي بشر بها (إبراهيم) سلفهم المشترك. هذه الرؤية أعطت المسلمين دور توحيدي دمجي وسط الجماعات الدينية التقليدية الأكثر تقدماً في الشرق الأوسط.

تحولت الحضارة الإسلامية إلى حضارة عالمية بفضل عامل مساعد آخر هو قدرتها على تلقي واستيعاب الثقافة من أحد أطراف العالم ومن ثم نقلها إلى الأطراف الأخرى. مثلاً فن صناعة الورق التي تعلمها العرب من الصينيين (من الأسرى الصينيين نتيجة للهزيمة التي منيت بها الجيوش الصينية على أيدي العرب فأسلمة آسيا الوسطى). وسرعان ما نشروا العرب صناعة الورق هذه في طول وعرض الامبراطورية العباسية. ثم امتدت إلى مصر وإسبانيا ثم إلى أوروبا. من ناحية أخرى أسهمت تكنولوجيا الورق بشكل فعال في نماء الدين وفي تسريع نشر القرآن الكريم.¹⁰ كذلك في مجال الزراعة حيث انتشرت المنتوجات الزراعية من وإلى وعبر العالم الإسلامي

القديم، وساهمت عملية زراعة المحاصيل الجديدة في إحداث تغييرات اجتماعية جذرية. ومثلما اهتموا بالزراعة الهندية وفهموها ونشروها فعل المسلمون الشيء نفسه بالعلوم والمعارف الإغريقية والهندية. ففي أواخر القرن الثامن الميلادي كان البيزنطيون قد أهملوا - منذ زمن بعيد - التعاليم الفكرية الكلاسيكية التي وضعها (أرسطو) و (بطليموس) و (جالينوس)، والتي هاجرت شرقاً عندما دفع الإضطهاد الدين المسيحي النساطرة الناطقين باللغة السريانية للهجرة إلى إيران، حيث واصل النسطوريين تدريس العلوم الإغريقية في ظل حكم آخر الحكام الساسانيين. وفي القرنين الثامن والتاسع عادت هذه التعاليم الفكرية المغمورة إلى الظهور ثانية

عندما أقام العباسيون عاصمتهم بغداد في قلب الإمبراطورية الساسانية، والخلفاء المتحمسون للحصول على هذه المعارف اعتبروها "معارف علمية" ... وعمدوا إلى إقامة (دار الحكمة) التي هي في الحقيقة عبارة عن مكتب يُعنى بترجمة الأعمال الإغريقية والسريانية والسنسكريتية والفارسية التي تبحث في علوم القدماء المتعلقة بشكل خاص بالطب والفلك والرياضيات.^{١١}

بالإضافة إلى هذه التعاليم العقلانية طور الباحثون علومهم التجريبية الخاصة التي كونت معارف غنية جداً في حقل الطب، إذ أن (الرازي: ٩٢٥، وابن سينا: ١٠٣٧) كان لهم مساهمات في العلوم الطبية؛ و(الخوارزمي: ٨٥٠) في مجال الفلك والرياضيات الذي عمل على الجمع والتوفيق بين المعلومات الفلكية الإغريقية والإيرانية والهندية، وبين ما توصل إليه في هذا المجال. وقد أحضر الهنود إلى بغداد أيضاً أعمالاً في الرياضيات فأخذها العلماء المسلمون وصاغوا على شاكلتها نظرية جديدة وهي "المستحدثات" للأعداد الرمزية بما فيه مفهوم (الصفر) وما أطلق عليه المسلمون اسم "الأعداد الهندية" بات يُعرف باسم الأعداد العربية عندما نُقل لاحقاً إلى الأوروبيين عبر الاسبان. وبناءً على هذه المعارف جمع الخوارزمي بين مبادئ الهندسة الإغريقية وعلم الحساب الهندي لاستنباط مبادئ النظام الرياضي المعروف بعلم (الجبر)، وهي الكلمة العربية التي اقتبسها الأوروبيون من عنوان كتابه "حساب الجبر والمقابلة". وهكذا كان لتراكم هذا النوع من المعارف أثر مركب أسهم في إبعاد العلوم الإسلامية عن شبهة المحاكاة أو الاصطفاء.^{١٢}

إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال فحسب، بل نظموا ورتبوا ثم أهدوها إلى الغرب. فهم مؤسسو الطرق التجريبية والكيمياء والطب والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلاث وعلم الاجتاع بالإضافة إلى عددٍ لا يُحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية.^{١٣}

ثالثاً: المؤسسات الإسلامية الاجتماعية الدينية:

بين القرنين العاشر والثالث عشر بدأ الخلفاء العباسيون يفقدون السيطرة على السلطة عندما بدأ الجنود الأتراك المستشرقون - الذين جُنِدوا للسهر على أمن الخلفاء والامبراطورية الإسلامية - بتولي الحكم بأنفسهم، فتحوّل هؤلاء الخلفاء إلى مجرد حكام صوريين. ثم جاءت الضربة الحاسمة في العام (١٢٥٨) عندما أقدم المغول الذين انتقلوا في مطلع القرن الثالث عشر من شرق آسيا إلى جنوبها الغربي، على اقتحام وتدمير بغداد عاصمة العباسيين وأعدموا آخر خليفة عباسي وألغوا منصبه - مقوضين بذلك الوحدة الرمزية للعالم الإسلامي.^{١٤}

وقد نظر العديد من الباحثين إلى أن ذلك كان بداية الانحطاط الحضاري الإسلامي. لكن يرى البعض الآخر أنه في فترة ما بعد القرن الثالث عشر التي شهدت تشطي الحضارة

الإسلامية سياسياً، لم تحافظ هذه الحضارة على تماسكها الداخلي فحسب، بل حققت أيضاً أعلى درجات الازدهار الثقافي وانتشرت على نطاق عالمي أكثر من ما حققته الفتوحات العربية التي تمت في القرنين السابع والثامن الميلادي . لذلك ركزت غالبية الدراسات الأخيرة على المؤسسات والشخصيات الذين وفروا للمجتمعات المسلمة تماسكها الداخلي وتوجهها الروحي عندما فقدت الحضارة الإسلامية التحامها على الصعيد السياسي. من أبرز هؤلاء كانوا العلماء والأولياء والمتصوفين الذين طُوروا بدءاً من القرن الثامن الميلادي مجموعة كاملة من الشعائر والتعاليم والنظم القانونية والأعراف الاجتماعية، والتقاليد الروحية، وأشكال الطباعة وأساليب الدراسة ومدارس الفلسفة التي ركزت وبيّنت لب وجوهر الحضارة الإسلامية.^{١٥}

رابعاً: نشأة المجتمعات الإسلامية:

ترجع نشأة المجتمعات الإسلامية إلى المدن/الدول في بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد حيث قامت الدولة الإسلامية لاحقاً على هذه المؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية لتلك المجتمعات وسادت شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام انقسامات عشائرية وتحالفات. وقفت مكة وحدها في وجه التمزقات وصارت مركزاً للتجارة الدولية والاختلاط وتنافس التيارات العالمية في وقت عانت فيه خطوط التجارة الدولية الأخرى تراجعاً كبيراً نتيجة الحروب بين الفرس والروم وانتشار الفوضى في البر والقرصنة في البحر.^{١٦}

في المجتمع الإسلامي حدث التحول وأعطيت القيم القديمة معان جديدة مما ساهم في دمج المجتمع القبلي، وقيام مجتمع جديد. وكانت الفتوحات الإسلامية بنتيجة سياسة واعية للدولة. وجرى تثبيت الفتوحات بالهجرات المنظمة إلى البلدان المفتوحة ومنع البدو من تخريب المجتمعات الزراعية. ومن ناحية أخرى أدى ازدياد أعداد المسلمين الجدد إلى زوال الحواجز بين العرب وغيرهم منذ البداية جرى ربط المسلمين الجدد بالقبائل مما أدى إلى اندماج هؤلاء الموالي بالقبائل التي تحولت أسسها من روابط الدم والقرباة إلى روابط سياسية واقتصادية.^{١٧}

كانت أيديولوجية الدولة موروث عن امبراطوريات سابقة لكنها أعطيت مضامين جديدة. في أيام الأمويين جرى تعريب الدولة وتحويلها من حكم بطيريركي (patrirachy) إلى حكم امبراطوري. ارتكزت الثورة العباسية على العرب. وتخلّى العرب عن هيمنتهم باسم المساواة بين المسلمين لكنهم لم يخسروا دورهم في المجتمع والدولة. ورث العباسيون تقاليد الدولة الأموية وممارساتها ونظمها تنظيمًا أكثر دقة وتراتبية. وتطورت البيروقراطية في عهدهم.^{١٨}

حكم العباسيون دولة مترامية الأطراف شملت شعوبا متعددة تفاعلت فيما بينها لينتج عنها في المركز إسلام كوزموبوليتي تمثل في بيئتين هما بيئة القصر الخلفي، وبيئة المدينة/العاصمة. في الأول ازدهر الاهتمام بالفلسفة والعمارة والعلوم، وفي الثانية شاع الاهتمام بالتفسير والفقہ والصوفية والأدب.

في القرن الثامن شاع الاهتمام بشتى أنواع المعرفة وهو عصر تدوين الثقافة العربية الإسلامية. وفي خضم الصراع الذي نشب بين الشعوبية والعروبة نشأت مؤسسة دينية بمعزل عن الخلافة.. وتدرجيا تحولت الصوفية ممارسة فردية إلى حركات جماعية بداية من القرن العاشر الميلادي وبخاصة مع تراجع الدولة المركزية وازدياد حدة الانقسامات السياسية والاجتماعية وتساعد الحاجة لدى المجتمع إلى إيجاد الوسائل التي يحافظ بها على تماسكه.^{١٩} ووقدت الخلافة تدرجيا سلطتها السياسية وتحولت إلى وجود رمزي؛ لكن السلاطين والأمراء الذين حكموا المناطق والأطراف فعليا بقوا يمارسون ذلك باسم الخليفة وينوبون عنه أو يمثلونه في الحكم. وكانت جميع هذه الدول التي قامت بعد العصر العباسي الأول تحكمها نُخب عسكرية، وكانت هذه النخب أقليات منعزلة عن الشعوب المحكومة ولا علاقة لها بها.^{٢٠} ومع ذلك أدى التطور الديني والاجتماعي إلى نشوء هوية إسلامية فوق الاختلافات المحلية وبمعزل عن مجريات أمور الدولة. وظهرت الإمامة الأثنا عشرية باعتبارها دين خلاص. وكذلك نشأت المذاهب السنية بمعزل عن الخلافة وأحيانا في مواجهة معها. وساهم في هذا التطور تقدم النظام التعليمي بما أُتيح له من الوسائل لنشر الثقافة والاتصالات العالمية. وشكلت المدارس مراكز دعوة ونشاط سياسي. وفي القرن الثاني عشر صارت الدولة تتبنى المذاهب الأربعة. في موازاة ذلك تطورت الصوفية من مواقف زهد وتأمل فردية إلى حركات اجتماعية بداية من القرن العاشر الميلادي.^{٢١}

لاحظ الباحثون إن التحول الجماهيري الكبير في الإسلام لم يحدث في عهد الخلافة المركزية القوية ولم تحققه ثقافة البلاط والأشكال الأدبية والإسلامية الأولى لهذه الثقافة. بل حصل هذا التحول مع تفكك الإمبراطورية العباسية عن طريق المدارس والمذاهب الفقهية والطرق الصوفية. ففي الفترة من القرن العاشر وحتى الثالث عشر أمسك رجال الدين بزمام القيادة في المجتمعات المحلية وبنوا الإسلام فيها وأعادوا صياغة هذه المجتمعات، وذلك بسبب انهيار النخب القديمة من ملاك الأراضي الذين حلّ العسكر العبيد أو البدو مكانهم. لقد خرج العلماء عن عزوفهم السياسي وحلّوا مكان النخب القديمة. لم يشكل العلماء طبقة بل جماعات كانت فوق

الانقسامات المحلية وتمتعت بحس عميق بالأمة عن طريق المذهب أو الطريقة الصوفية. وكانت رحلات العلماء طلباً للعلم وكذلك الصوفية والتجار تساهم في تمتين وحدة المجتمع وترتبط بين مختلف الجماعات المحلية.^{٢٢}

خامساً: واقع الإسلام في ظل العولمة:

يخطر لذهن الكثيرين أن الإسلام أصبح مهدداً ويواجه خطر الإسلاموفوبيا (الهلع من الإسلام والمسلمين). يغيب عن الذهن أن الدين الإسلامي أصبح في الواقع أعظم قوة دينية في العالم الآن ويتجاوز ما كانت عليه شأفته حتى في عز الدولة الأموية التي رفعت رايات «لا اله إلا الله» خفاقة من فرنسا وإسبانيا إلى الهند والصين. يشكل المسلمون الآن ثاني طائفة في العالم (٢١%) لا يعلو على انتشارها غير المسيحيين (٣١%)، مع هذا الفارق الكبير وهوان الكثير ممن يعتبرون مسيحيين هم في الواقع مجرد مسيحيين على الورق. وينسلخ عنهم الكثير من يوم إلى يوم. هناك الآن نحو ١٦% يعتبرون أنفسهم ملحدين. وكل ذلك بينما يزداد المسلمون عدداً من يوم إلى يوم وينضم إليهم الناس في كل مكان.^١

لقد تساءل البعض عن "ما الذي يشجع هؤلاء الغربيين على اعتناق الإسلام رغم حملة الإسلاموفوبيا؟ عبر بعضهم عن إعجابهم بهذا الدين وتعلقهم به لأنهم وجدوه متمسكا بأساسيات الإيمان ويعطيهم الثقة والتأكيد على الإيمان بالله وأوامره ونواهيه. يقارنون ذلك بما جرى في الغرب من إعادة نظر وتقيحات متواصلة وصلت إلى حد إنكار وجود جهنم وتعذيب الآثمين والكافرين. وأخذوا يعقدون الزواج بين اللوطيين، بل وتعيينهم قساوسة وأساقفة في الكنيسة. وغدا الزنى حتى بين المحارم شيئاً معتاداً بل وحقا من حقوق الإنسان. أعجبوا بدين محمد أيضاً في احتضانه لكل المؤمنين وأهل الكتاب دون أي تمييز بين الجنسيات والاعراق والألوان".^٢

المسلمون يزدادون عدداً باستمرار في الغرب بفضل الهجرة والولادة العالية والاعتناق. ويعتقد البعض أنهم سيشكلون الأكثرية في أوروبا في نهاية هذا القرن. إنهم يشكلون ٣.٥% في ألمانيا وترتفع النسبة إلى ٥.٥% بإضافة المهاجرين اللاشعبيين.

^١ خالد القشطيني، الإسلام في أوج قوته، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، ٢٠١٠/٩/٢

^٢ المصدر نفسه.

بيد أن الكثرة العددية ليست العامل الوحيد في طرحي هذا. النفط الذي يتوقف كل شيء عليه الآن هو «إسلامي». لا يملك غير المسلمين إلا كميات محدودة منه وعلى وشك النفاد. ومن النفط طبعاً، جاءت هذه الثروة المالية الهائلة التي هي بين أنامل المسلمين أيضاً. أخذ الغربيون يقلقون إزاء أي خطوة تتخذها دولة إسلامية في توظيف ملياراتها. يقال إن من أسباب غزو العراق هو سعي صدام حسين لمهاجمة الدولار الأميركي بتغيير التعامل بالنفط بعيداً عن الدولار. وأخيراً فالعالم الإسلامي يقف جغرافياً على كل مسالك ومداخل ومخارج المواصلات الدولية.^٣

لا تلعب هذه القوة حتى الآن دوراً خطيراً في شؤون العالم بسبب حداتها. لم يتعلم المسلمون بعد كيف يستعملون عضلاتهم على الساحة الدولية. ولكنها مسألة وقت. العائق الوحيد أمام الزحف الإسلامي هو الإرهاب الذي أخذ يثير موضوع الإسلاموفوبيا ويعرقل تحرك المسلمين ويحرمهم من التزود بهذا السلاح الأول، وهو العلم والتكنولوجيا. الإرهابيون هم في الواقع العقبة في طريق الزحف الإسلامي...^٤

سادساً: خصائص الحضارة الإسلامية:

من مقومات الحضارة الإسلامية أنها حضارة التوحيد وهي إنسانية النزعة قبل أن تكون إسلامية العقيدة. ومحور العقيدة هو منطلق الحرية الإنسانية في التصديق بالذات الإلهية... وحرية في التصور وفي الاعتقاد وفي العمل، تخلق تنافساً وسعيّاً في الأرض بكل إطمئنان، وتجعل من الإنسان خلقاً منتجاً ومبدعاً، يسعى إلى إرضاء مولاه وخالقه بكل ما أوتي من وسائل الفضيلة والتقوى... والتوحيد غاية الخلافة والعمارة والعبادة في الأرض. وفي الخلافة توازن بين المادة والروح.^{٢٣}

والحضارة الإسلامية حضارة قيم وهي متماسكة ومتوازنة حضارة توحيد، لا تعاني من خلل فالخلل "الكامن في بنية الحضارة الغربية على اختلاف أنواعه ودرجاته مرده إلى الاضطراب والقصور في الرؤية المسيحية إلى الله والرسول، ومن ثم إلى الكون والحياة الإنسانية، تلك الرؤية التي شوهدت التثليث، ومسختها الرومان، وطمستها الحداثة والعلمانية، فجاء النموذج الحضاري زائف الشكل، متهافت المضمون، جافاً، لا معنى ولا روح فيه.^{٢٤}

^٣ خالد القشطيني، المصدر السابق.

^٤ المصدر نفسه.

لقد كانت الكيانات الحضارية قبل الإسلام كيانات منغلقة تحكمها تجاه الأغيار فلسفة التناقض الجدلي الذي يعتمد في العلائق بين البشر منطق الحقد والتربص، والتحرش والبغي والعدوان، كيانات ذات مدنية هائلة - كعاد قوم هود - بيد أنها بغير روح ولا ضمير ولا حضارة.^{٢٥} وهي حضار العلم والعمل والتمكين، وحضارة الانفتاح. وهو مماثل لمفهوم "التعايش بين الحضارات والثقافات والأديان" في العصر الحديث. فالحضارة الإسلامية عاشت منذ ولادتها استمرارية تفاعل مع الحضارات الأخرى ففتحت حدودها الفكرية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية على مختلف أنواع البشر، بكافة معتقداتهم وعلى اختلاف مقاصد وأهداف حضاراتهم. وقد جاء الإسلام ليمد جسور البناء الحضاري الذي تم تشييده في عهد الأنبياء والرسل قبل بعثة محمد (ص) لبنة الختم التمام؛ هذه اللبنة التي وُضعت خططها وتصاميمها في عهد آدم، عليه السلام، وكشف تعاقب الأنبياء من بعده تجديد وتثبيت حجر أساسها، فأعاد بناءها وأرسى قواعدها سيدنا إبراهيم، عليه السلام، وسد ثغرة لبنتها محمد (ص).^{٢٦}

إن الحضارة الإسلامية قامت على رسالة الإسلام وهي رسالة عالمية موجهة للبشرية جمعاء؛ لأنها تأمر بمكارم الأخلاق والتسامح والإخاء والتعاون على أساس أن البشرية تشكل وحدة إنسانية متكاملة: {يا أيها الناس اتقوا ربكمالذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجال كثير ونساء، اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام} - النساء (١). ورسالة الإسلام تحث على تعميق التساكن والتعايش السلمي العالمي بين أبناء الشعوب عن طريق الاندماج والانصهار والتعارف بما يفضي إلى إسعاد بني البشر،^{٢٧} {وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا}. إن على النخبة السياسية في الدول الإسلامية المعاصرة استلهاً هذه المعاني لإحياء هذه الحضارة العالمية التي بإحيائها نستطيع أن نؤسس للتعايش السلمي للعالم وليس الاستقرار السياسي للعالم الإسلامي فقط. فالحضارة الإسلامية هي "خلاصة لحضارة النبوة وتجربتها، وهي جماع القيم السماوية عبر تاريخ الإنسان، وهي الحضارة التي استطاعت الامتداد والعطاء الإنساني على الرغم من خضوعها لقانون السقوط والنهوض الحضاري، وخضوعها للمد والجزر حسب توفر الخصائص الحضارية أن انتقاصها؛ ذلك أن هذه الحضارة، شأن سائر الحضارات، انتاج بشري انساني خاضعة للخطأ والصواب، والسقوط والنهوض لكنها تختلف أو تتميز عن غيرها من الحضارات بأنها جهد بشري مؤطر بقيم الوحي الهادية في الكتاب والسنة. أي أنها تمتلك المعايير، تمتلك القيم والأفكار المجردة عن فعل الإنسان، الخارجة عن وضعه.^{٢٨} فإذا وهنت أو سقطت أشياء الحضارة (انتاج الإنسان) فلا يعني ذلك ولم يعن تاريخياً موت الحضارة، ذلك أن القيم والأفكار

والثقافة التي ترتكز إليها الحضارة الإسلامية هي قيم خالدة، قادرة على معاودة انتشار الإنسان، كما هي قادرة على معاودة الانتاج كلما استطاعت أن تصوب مسيرتها في ضوء قيم الوحي. لذلك تميزت الحضارة الإسلامية عن سائر الحضارات في التاريخ بقدرتها على البقاء والاستمرار.^{٢٩}

خلاصة القول إن من خصائص الحضارة الإسلامية هي العالمية والإيجابية والشمول والوسطية والربانية. فهي ليست أفكاراً بشرية فقط ولا تجارب إنسانية خالصة بل تتميز بأنها تستند إلى هدي الكتاب والسنة النبوية. كما أن الحضارة الإسلامية تتمتع بمرونة وقدرة على التكيف والاستيعاب وأنها انتشرت سلمياً عن طريق العرب الرحل والعلماء والطرق الصوفية.

الهوامش

١. أنظر مقدمة مجلة الاجتهاد، العددان (٢٦) و (٢٧) شتاء وربيع ١٩٩٥، بيروت: دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة، ص ٥.
٢. Richard M. Eaton: Islamic History as Global History, American Historical Association
٣. المصدر نفسه، ص ١٨٣.
٤. Andrew Watson, in: Eaton, Ibid., p. 190
٥. المصدر نفسه، ص ١٩٠.
٦. Richard Bulliet, Conversion to Islam in the Medieval Period: an Essay in Quantitative History.
٧. Marshall Hodgson, World History: Essays on Europe, Islam and World History, Cambridge University Press, p. 19.
٨. Richard Bulliet, op. cit.
٩. Andrew Watson, في: مجلة الاجتهاد، المصدر السابق، ص ١٨٨.
١٠. Marshall Hodgson, Venture of Islam, 1974, Ibid., p. 199.
١١. N. Levitzon, Conversion to Islam, 1979, in Al-Ijtihad journal, op. cit., p. 202.
١٢. المصدر نفسه.
١٣. جيرنوت روتر، الإسلام والغرب: الجوار المقفود (ترجمة ثابت عيد)، مجلة فكر ونقد، العدد (٥)، ١٩٩٨، ص ٢٨. في: د. علي عبدالله صالح أبوبكر، حوار الحضارات: تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا، الخرطوم: هيئة الأعمال الفكرية، ٢٠٠٢، ص ١١٢.
١٤. المصدر نفسه.
١٥. مجلة الاجتهاد، المصدر السابق، ص ٢١٥.
١٦. Ira M. Lapidus, A History of Islamic Societies, Cambridge University Press, 1988, p. 974.
١٧. المصدر نفسه.
١٨. الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، مجلة الاجتهاد، المصدر السابق، ص ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
١٩. المصدر نفسه، ص ٢٦٩.
٢٠. المصدر نفسه، ص ٢٧٠.
٢١. المصدر نفسه، ص ٢٧١.
٢٢. المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
٢٣. د. سعاد رحائم، الحضارة الإسلامية: جذور وامتدادات، كتاب الأمة، العدد (١٢١)، السنة السابعة والعشرون، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٧، ص ٣٥.
٢٤. عطية فتحي الويشي، الحضارة واشكالية المصطلح، في: مجلة الدعوة الإسلامية، مجلة محكمة تصدر سنويا عن كل كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، طرابلس، العدد السادس عشر، ١٩٩٩، ص ٣٨٠.

٢٥. المصدر نفسه، ص ٣٧٩.
٢٦. سعاد رحائم، المصدر السابق، ص ٥٥ ، ١١٧.
٢٧. المصدر نفسه، ص ١٤٥ - ١٤٦.
٢٨. عمر عبيد حسنة، في تقديمه لكتاب سعاد رحائم، الحضارة الإسلامية... المصدر السابق، ص ٦.
٢٩. المصدر نفسه.